

"السكون هو عمل الراهب. فإذا فقد السكون، اختلت حياته كراهب". مار اسحاق

١كرامة السكون وأفضليته

كرامة السكون:

قال مار اسحاق: "العمل الأول في الفضيلة الرهبانية هو السكون".

"إذا وضعت كل عمل التدبير في ناحية واحدة، والسكون في ناحية أخرى لوحظ أن السكون يرجح أكثر".

السكون يصلح جدًا لعمل الله. لأجل هذا قبض القديسون حواسهم من العالم، وبعد هذا اهتموا باستعداد القلب بعمل الله الخفي".

"اعلم أن كثرين - أو لعل جميع المسيحيين - يعملون جميع الفضائل بشجاعة وفرح. أما على السكون فما يحسرون".

"أحب النوم الهدى في السكون، لأن خيالات أحلامه أنسع من أفكار اليقظة التي تكون خارج السكون".

وعن أفضلية عمل الصلاة في السكون أكثر من باقي الفضائل، قال:

"متعال جدًا وفاضل هو محب الملك وصاحب سره ومجالسه على المائدة، أكثر من جميع الشجعان والجبارية الذين يقاتلون في الحروب وينتصرون، الشجعان ذوي الأموال".

عمل السكون أفضل من عمل العلمانيين الأبرار ورهان المجمع:

"عارض عظيم على المتوحد الذي يعد بكمال السيرة، ومحقرة عظيمة في حقه، أن يوجد تدبيره مساوياً لتدبير العلمني المتزوج، حتى إن كان خائفاً من الله وباراً".

"لأنه إن لم يكن الراهب مرتفعاً عن جميع البشريات، شاخصاً في الله في كل وقت بالتدبير في السكون، ما يعرف أنه أفضل من العلمني البار. لأن العلمانيين الفضلاء يعملون الفضائل الظاهرة، ولا يحسنون بالتدبير الكامل الخفي الذي للمتوحدين".

"وينبغي عليهم أن يعرفوا، أنه كما أن النفس أفضل من الجسد بطبيعتها، كذلك التدبير الخفي بالسكون هو أفضل من تدبير العلمانيين الظاهر".

"وكما أن تدبير الملائكة أفضل من عمل الناس، وكذلك تدبير العقل بالسكون هو أفضل من تدبير الرهبان بالمجمع وفضائلهم التي تشبه فضائل العلمانيين الأبرار. وكما أن حب الله أشرف وأرفع من حب الناس، وكذلك عمل المتوحدين أفضل من عمل العلمانيين الصديقين".

"لأن العلمانيين بمحة الناس يرضونه. أما المتوحدين فما يشتتهن شيئاً ما مما في السماء أو في الأرض إلا إيه وحده. لأنهم تعرّوا بإرادتهم من كل شيء وألبسوه ضميرهم نظر الله وحبه. لذلك عال وأفضل من جميع الفضائل هو عمل السكون".

"بالحقيقة إن عمل مائة أخ في السجس والمفاوضة يصومون ويصلون، ما يساوي عمل متعدد واحد حالس في السكون عادم الخلطة والمفاوضة، ولو كان ضعيفاً.. وأن صلاة واحدة يقدمها الإنسان لله وهو وحده، وهي خير من مائة صلاة يصنعها مع الناس".

"في الهدوء يقتني الإنسان بسهولة طهارة القلب وبساطة الإيمان، ويوهله للنقاوة، إن هو حفظ حقوق السكون واحترس بواجبات السيرة".

"أما الذي في المجمع، فهو مثل الذي في السوق! حتى لو أغمض حواسه لا يمكنه أن يفلت من الملاقة النافعة والمفسدة التي تصادفه بالضرورة".

"امض نم في البطالة، أو طف باطلًا في الجبل أنت وحدك. ولا تذكر سماع شيء من الأحاديث الباطلة. ولا تعود ذاتك بالقرب والدنو من معتاديها. وعند ذلك تعرف كم تنفع البطالة مع الوحدة أكثر من السماعات الباطلة".

عمل السكون أفضل من الخدمة وعمل المعجزات:

"الذى قد أحس بخطاياه، يعرف أن الوحدة خير له من أن ينفع المسكونة بمنظره، والذى يتنهى على نفسه ساعة في الوحدة أفضل من الذى يقيم الموتى بصلاته ومسكته في السجن. والذى استأهل أن ينظر نفسه هو أفضل من الذى استأهل أن ينظر الملائكة. لأن هذا بعين الجسد يشاركهم، وذاك بعين الروح يرى نفسه. والذى بالحزن والنوح في الوحدة يلتصق بال المسيح أفضل من الذى كل يوم يمدحونه في المجتمع". "خير لنا أن نستنشق الحياة بالبعد عن الكل، من أن نغري الأحياء بالاستنشاق". "العمل الذى بين الناس فيه افتخار، والضعف الذى في السكون فيه انسحاق قلب".

"لا تقس صانعي الآيات والمعجزات والقوى في العالم بالساكين بمعرفة في الهدوء. لأن الأفضل لك أن تفك ذاتك من رباط الخطية، من أن تعقد عباداً من العبودية ومن سجن أسرهم. اصطلاح أنت مع ذاتك باتفاق الثالوث الذي فيك - أعني النفس والجسد والروح - أكثر من أن تصلح المتغاضبين بتعليمك. لأن الشيئولوغوس يقول: حسن هو الكلام عن الله تعالى بجلاله، وأجل من هذا أن يظهر الإنسان ذاته لله تعالى".

"كثيرون صنعوا قوات وأقاموا أمواطاً، وتعبوا في رد الضالين وإرشادهم اهتمى كثيرون إلى معرفة الحق. وبعد هذا سقط هؤلاء الذين أحياوا آخرين في آلام نجسة مرذولة، وأماتوا نفوسهم، وصاروا شكاً للذين آمنوا على أيديهم".

السكون أفضل من عمل الرحمة

تدبران لا يحتملان:

"قال أحد الشيوخ: إن كنت علمانياً فتدبر بالسيرة الحسنة التي للعلمانيين. وإن كنت راهباً تدبر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحدين. وإن كنت تزيد أن تستثير في التدبرين - أعني تدبر العلمانيين وتدبر الرهبان - تسقط وتخيب من الاثنين. لأن عمل الرهبان هو هذا: الانعتاق من كل المحسوسات، والمداومة مع الله بهذيد القلب، وتعب الجسد بالصلاحة. هل يستطيع أن نقرن مع هذا الفضيلة العالمية؟ أو هل يمكن للمتوحد العمال في سيرة السكون أن يكمل التدبرين الداخلي والخارجي أعني الاهتمام بالله بقلبه والاهتمام من أجل الآخرين؟".

السكون أفضل:

"وإن كان بحجة الصدقة يهدس فيك الفكر، فاعلم أن الصلاة مرتبتها أرفع من الصدقة".

"انظر أن صانعي الصدقة ومكملي محبة القريب بأمور جسدانية يوجدون في العالم. وأما السائرون في تدبر السكون بالواجب والمتفاوضون مع الله بعد جهد تجد قليلين وأفراداً".

"أنا أسألك ألا تخندع. فإن الرحمة مشابهة ل التربية الطفل. أما السكون فهو غاية الكمال".

ليست الرحمة عملك:

"قال أحد القديسين: ليس هذا هو غرض سيرتك وقصدها، أن تشبع الجياع أو أن تكون قلaitك ملحاً للغرباء. لأن هذه السيرة تلقي بالذين يريدون أن يتدرّبوا في العالم حسناً. ولبيست هذه للمتوحدين المتعتقين من جميع المنظورات، الذين قصدتهم حفظ العقل بالصلة".

"متى دخلتكم شهوة اهتمام بغيرك بنوع الفضيلة حتى يتشتت ما في قلبك من السكون، فقل لها: طريق المحبة حيدة، والرحمة لأجل الله مقبولة. ولكنني أنا من أجل الله ما أريدها. حسب قول ذلك السائح، لما كان يجري وراء ذلك المتوحد ويقول له: "من أجل الله قف لي وإلا أجري وراءك. فأجابه وأنا من أجل الله أهرب منك".

"تكميل واحبات حب القريب بنية الأمور الجسدانية هو بر أهل العالم والرهبان الذين في المجتمع، المجتمعين بعضهم مع بعض، ويدخلون ويخروون كل وقت. وهذا يليق جداً بهؤلاء وليس بالمتوحدين الذين بالحقيقة اختاروا بعد عن العالم بالجسد وبالعقل ويريدون أن يقيموا في ذواتهم الصلاة الدائمة".

"تدبر المتصوفين هو شبه الملائكة. فينبغي ألا ترك عمل السمائيات ونربح البر بأمور أرضية". "وليس يليق بالمتصوف أن ينزل فكره من القيام قدام الله إلى الاهتمام بشيء من الأشياء". "وأما أنت فإن كنت تزيد عمل السكون فكن مثل الشاروبين الذين لا يهتمون بشيء من الأرضيات. وفكر أنه ليس في الدنيا سواك أنت والله الذي اهتمامك وهذيدك به. حسبما علمك آباءنا الذين ساروا قبلك في هذا التدبر".

لماذا ليست الرحمة عملك؟

"لأن عمل الرهبان هو هذا: الانتعاق من كل المحسوسات والمداومة مع الله بهذيد القلب وتعب الجسد بالصلوة. وليس يطلب من مثل هذا أن يخدم الناس". "الراهب الذي ما عليه الرحمة فضيلة، ظاهر أنه هو الذي يمكنه أن يقول لل المسيح بوجه مكشوف: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك."

"إن كنا لا نملك شيئاً من القنية، فما أمرنا الله أن نلقي بأنفسنا في اهتمامات لأجل المساكين. وإن كانت سيرتنا توجب علينا بعد عن الناس وعن الاختلاط بهم. فما يليق بنا أن نترك قلالينا ومواقع توحدنا، وندور ونطوف العالم، نتعهد المرضى ونتشاغل بهذه الأمور هي نزول وانحدار من الأعلى إلى المستوى الأقل علواً."

أمثلة من سير القديسين:

"بماذا أرضى الله القديسون القدماء الذين تركوا لنا هذه السيرة بعد أن تحنكوا فيها؟ القديس يوحنا التباعي - كنز الفضائل وينبوع النبوة - أليس بالصلة لا بالخدمة قد أرضى الله؟"

"إن أبا أرساني، من أهل الله، ما كان يفتح فاه ويتكلم، لا كلام منفعة ولا غيره. وأخر من أجل الله كان يتكلم النهار جمیعه، ويقبل الغرباء الذين يأتون إليه، لعل المقصود هو القديس موسى الأسود. وأما أرساني فهو عوضاً عن هذا اقتني لنفسه الصمت والسكون، ولأجل هذا مع روح الله كان يسير داخل بحر هذا العالم بسلام، مرتفعاً في سفينة السكون، حسبما ظهر لأحد قدسي الله لما فتش وبحث هذا الأمر".

"فإن كان أولئك الذين يحتاج العالم كلهم إلى صلواتهم وتعاليمهم وكلامهم والانتفاع حتى بمنظرهم، قد أكرم الله ثباتهم في السكون أفضل من منفعة الناس جميعهم! فكم بالأكثر الذي لا يقدر أن يحفظ حتى نفسه؟!".

سؤال الأنبا سيماؤن:

لماذا طوب الرب الرحمة، فاختار الرهبان السكون وآثروه عليها؟

الجواب:

"إننا نحن الرهبان لا نلزم السكون بدون رحمة، بل نحاول أن تكون كاملين في كل وقت داخل الرحمة لسائر الطبائع الناطقة." "ولسنا نحفظ هذا فقط. ولكن متى دعتنا الضرورة إلى هذا العمل، فما يليق بنا أن نتهاون بالمحبة لأجل السكون. لا يجوز أن نمتهن الاسم العظيم- اسم السكون- بجهلنا، لأن لكل سيرة وتدبير وقتاً وزماناً وإفرازاً."

"واعلم هذا: أن المتهاون بالمريض ما يبصر ضوءاً. ومن يشيح بوجهه عنمن هو في ضيقه يُظلم عليه النهار، والمزدرى بصوت المتعب، في الظلم يسلك".

إإن كنا قد عرفنا أنه خلواً من محبة القريب ما يمكن للعقل أن يستنير في المحادثة والحب الإلهي، فمن هو إذاً الراهب الحكيم الذي يكون له ملبس أو مأكل، وينظر قريبه أو أخيه عارياً أو جائعاً، ويحتمل أن يشفق على شيء مما ذكرناه؟! أو من ذا الذي يشاهد أخيه مريض الجسم وليس له من يقتدبه ويريد هو لشهوته في السكون أن يؤثر قانون التفرد والتوحد والسكون على نياح أخيه أو قريبه؟!

"ربما يكون هذا قاسياً بعيداً عن المحبة، ويكون سكته رباء!"

"إن كان راهب يعمل بيديه ويأخذ أيضاً من آخرين، يجب عليه هو أيضاً أن يتصدق ويعطي. لأن إهماله هذا هو تجاوز ظاهر لوصايا الله".

"وإن كان الراهب بالقرب من كثرين، ومسكنه بجوار مسكن الناس. ويتنيح بتعب آخرين في زمان صحته ومرضه، فيجب عليه هو أيضاً أن يعمل معهم كما عملوا معه."

"إإن كان يسلك السكون بقوانين الأسابيع. وبعد كمال الأسبوع يخرج ويختلط بالناس، ويتعذر بالمفاضلة معهم، ويحمل الاعتناء بأخيه إذا ما نظره متضايقاً أو مريضاً ويظن أنه يحفظ قانون الأسابيع فهذا قاس على الحقيقة!".

"إإن كانت هذه الأمور ما هي حاصلة ولا قريبة منها (لانفرادنا بعيداً في البراري)، فلنحفظ بعقلنا وقلينا المحبة والرحمة للقريب. أما إن كانت هذه الأمور قريبة منها، فلنكمم محبة القريب بالفعل. لأن الله يطالعنا - في هذه الحالة - أن نكملها ونتممها بالفعل".

"إإن أتيت لي بذكر يوحنا التباعي أو أرسانيوس ومن يشبه هذين، وقلت لي: من هو من هؤلاء قد اهتم بأحد المرضى أو المساكين وترك السكون؟ فأنا أقول لك: لو أنك بعدت عن كل نياح شرقي، وزهدت لقاء الناس كما كان هؤلاء، لما طولبت بأعمال الرحمة. فلا تحتاج بسير الآباء العظام والقديسين الكاملين الذين أنت بعيد عن طرقهم".

"وأنا أذكر عن هذا الأب العظيم أنه قد كتب عنه - لأجل قطع حجج الذين يتهاونون بأخوتهم - أنه في بعض الأوقات مضى ليفتقد أباً مريضاً. فلما سأله عما يشتته قال له: "أشتهي خبرًا طریاً، فمضى ذلك المستحق الطوبى من الإسقاط إلى الإسكندرية - وكان ابن سبعين سنة - وأبدل خبره اليابس بخبر طرى وأحضره للأخ".

"وقد فعل قديس آخر من الآباء - وهو الأب أغاثون - أعظم من هذا وهو الذي كان يلزم الصمت والسكون كل أيام حياته أكثر من كل أحد. إذ أنه مضى في بعض الأوقات إلى الريف لبيع شغل يديه. فوجد في السوق إنساناً ملقى غرباً مريضاً. فاكتفى له بيته. وأقام عنده يعمل بيديه وينفق عليه، ويزن أحرة البيت، ويخدمه ستة أشهر إلى أن عوفي وبرئ. وكان يقول أيضاً: "إنني أشتاهي واحداً مجدوماً، فأعطيه جسدي وأخذ جسده".